إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الاعراف: ١٥٧].

أما «الأمر» فلم يقل: (فأتوه كله أو أتوه بشكل كامل غير منقوص) لأنها أمور يتفاوت فيها الناس كل حسب سعته وعلمه وإيمانه وتقواه كِبرّ الوالدين على سبيل المثال فهو أمر يتفاوت فيه الأبناء فهناك من يزور والديه الكبيرين مرة كل يوم وهناك من يفعل ذلك مرة في الأسبوع أو في كل شهر وكل حسب ظروفه وطاقته وكلهم يدخل في دائرة البر والإحسان.

وكذلك في الصلاة فبعد أن أمرنا الشارع الحكيم بإقامة الصلوات الخمس فإنه رغبنا في صلاة النفل وحثنا على التهجد وصلاة الليل فالناس يتباينون في هذا الشأن كل حسب استعداده وأشواق نفسه فهناك من يقوم ثلث الليل وهناك من يقوم نصفه أو ثلثيه كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

وكذلك الأمر بالنسبة للصدقة فبعد إخراج الزكاة المفروضة فإنه يوجد مَن يكثر من الصدقات وينفق بالليل والنهار وهناك من يكتفي بدراهم معدودات وكذلك في الصيام فهناك من يصوم بعد رمضان يومي الخميس والإثنين من كل أسبوع وثلاثة أيام مَن كل شهر وهناك من يكتفي بصيام رمضان وبعض المناسبات: كصيام عرفات وعاشوراء، فالشارع بعد الفرض لا يحدد سقفًا معينًا بل يترك المجال مفتوحًا لإشباع حاجات النفوس التوّاقة نحو الخير والأرواح المنطلقة إلى المزيد.

* * *

الطاعة على قدر الاستطاعة

كما أن الشارع وضع في الاعتبار أن النهي لا يشترط فيه العمل والإنشاء إذ هو مجرد ترك واجتناب وذلك بخلاف امتثال الأمر فإنه لا يحدث إلا بعمل وهذا العمل له شروطه وقد تكون هذه الشروط غير متيسرة أو متوفرة لدى الجميع في كل

OBEIKAN.COM

الظروف والأحايين ولذا قيد «الأمر» بالاستطاعة وضربنا مثلا على ذلك بالحج فليس كل المكلفين لديه ما يفيض عن حاجته وحاجة أهله وحتى لو توفرت له النفقة لأداء فريضة الحج فقد لا تتوفر له القدرة البدنية ولذلك يسقط عنه التكليف بالحج عندئذ ويعذر لعدم الاستطاعة ولذلك لم يقل ربنا فقط : ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ** ﴾ وسكت بل قال بعدها : ﴿**مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران : ٩٧] فالتيسير أصل من الأصول التي ينبني عليها هذا الدين .

ولذلك قال العلماء : «الطاعة على قدر الاستطاعة»ويقال أيضًا في الأمثال : (إذا أردت أن تطاع فأْمر بالمستطاع) والله لا يكلف العباد بما لا يطاق، يقول عز وجل : ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[البقرة: ٢٨٦] كما استنبط علماء الأصول أيضًا قاعدة فقهية من هذا الحديث : «**ما أمرتكم به من شيء فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**» وهي (الميسور لا يسقط بالمعسور) فمَن كان مريضًا وتعذر عليه الصلاة قائمًا فإنه لا يرخص له بترك الصلاة بل يأتي منها ما تيسر له فيصلي قاعداً إن عجز عن القيام أو يصلي وهو مضطجع إن لم يستطع القعود فما لا يُدرَك كله لا يُترك كله .

فبعد أن أمر الله في صدر «سورة المزمل» بقيام معظم الليل والإكثار من تلاوة الصلاة أثناء صلاة القيام وذلك في قوله عز وجل : ﴿**قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً**﴾ [المزمل: ٤،٢] وبعد امتثال الرسول ﷺ والمسلمين بهذا الأمر وكان ذلك في بداية الدعوة فإنه بعد ذلك نسخ هذا الحكم في الآية الأخيرة من نفس السورة ، سورة المزمل، وذلك لعلمه عز وجل بالظروف التي طرأت على المأمورين مثل : نزول المرض بهم أوانشغالهم بالضرب في الأرض لكسب المعايش أو في أمور الجهاد وهو من باب التخفيف والتيسير عليهم فقال عز من قائل : ﴿ **فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ**﴾ [المزمل: ٢٠] .

ولذلك أمرنا الرسول ﷺ بالإيغال في الدين برفق فقال في الحديث الذي رواه أحمد والبزار: «**إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق**» ورواية البزار: «**فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى**» وفي حديث البخاري: «**لن يُشادَّ هذا الدين أحد إلا غلبه**» فالدين أبواب البر فيه واسعة ومجالات الخير فيه متشعبة ولن نستطيع أن نأتيها أو نحصيها كلها ولذلك قال عز وجل: ﴿**عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ**﴾ [المزمل: ٢٠] ولكن لا ينبغي ترك أعمال الخير والبر بالكلية بل نأتي منها على قدر الاستطاعة وذلك حتى لا نصاب بالملل والسآمة فنترك العمل بعد الاندفاع والحماسة فتكون كما ذكر الحديث كالمنبت لا أرضًا قطع ولا ظهراً أبقى فـ «**أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**» كما في الحديث المتفق عليه وأيضًا ما رواه أحمد وأبو داود والنسائي «**عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا**» وقليل دائم خير من كثير منقطع.

ولذلك جاء هذا التنبيه في قوله عز و جل في سورة الحجرات: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾ ليلفت الأنظار إلى باب عظيم من أبواب تزكية النفس وتربية النشء وهو أن التهاون في الأمر الصغير قد يجر إلى الوقوع في الأمر الكبير ولا يحسم ذلك إلا سد الذرائع وإغلاق باب الشر، فعلى المرء أن يحتاط ويحترس فمعظم النار من مستصغر الشرر.

فلا ينبغي إذن التساهل في إتيان بعض الأمور المحرمة باعتبار أنه أمر يسير ومحتمل في أول الأمر كالهمسة واللمسة والنظرة المحرمة التي تجر إلى الخطرة ثم الفكرة ثم الخطوة والكلمة ثم الوقوع في الفاحشة ولذلك ما نهانا الله عن إتيان الزنا في حد ذاته بل عن مباشرة أسبابه ومقدماته فلم يقل: (ولا تزنوا) بل قال: ﴿**وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَى**﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقل مثل ذلك فيمن يقول: لا بأس بقليل من الخمر ثم تجره الكأس الأولى إلى الإدمان وإلى ما لا يحمد عقباه وكما تجر الكأس الأولى إلى كئوس كثيرة فكذلك جرعة صغيرة من المخدرات تؤدي إلى الإدمان الكامل وهذا أمر مجرب ومشاهد وسل أيضًا من

OBEIKAN.COM

ابتلي بالتدخين فإنه بدأه مع أول سيجارة حتى وصل به الأمر بعد ذلك إلى التدخين بشراهة ثم بدأ يعاني الأمرَّين ويدفع الثمن غاليًا من صحته التي أصابها العلل والأسقام ولذا ورد في الحديث النبوي الذي رواه أبو داود «**ما أسكر كثيره فقليله حرام**» .

* * *

السلامة لا يعدلها شيء

فلا ينبغي أن نقول : إن المرة الواحدة لا تضر وإنه يمكن تلافي الأمر وكبح جماح النفس وذلك لأن الأمر بعد ذلك غير مأمون أو مضمون وقد يخرج الأمر عن نطاق السيطرة فلابد إذن من الحسم والعزم من أول الأمر وإياك والاغترار بالنفس فالسلامة لا يعدلها شيء . فابتعد عن مواطن الشبهات واعتبر بغيرك ممن كان يظن أنه يستطيع أن يرد نفسه إلى الحق متى شاء ، واحمل نفسك على الخير حملاً وازجرها عن الشر مِن البداية ولا ترخ لها العنان أو تترك لها الحبل على الغارب وصدق الإمام البوصيري في «البردة» إذ يقول فيها :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

كما ورد أيضًا التحذير من الذنوب الصغيرة ففي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن الرسول ﷺ أنه قال : «**إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» .وصدق من قال : (لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى عظمة من تعصي) والوقاية خير من العلاج .

وهكذا رأينا كيف أولى الإسلام جانب الترك أهمية كبيرة كما مرَّ بنا في حديث : «**ما أمرتكم به من شيء فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه**» ويتضح ذلك أيضًا من حديث «المفلس» الذي رواه الإمام مسلم : «**إن العبد يأتي يوم القيامة**

بصلاة وزكاة وصيام ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح به في النار» . وحديث البخاري أيضًا: «**مَن كانت له مظلمة لأخيه من عرض أو شيء ، فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون درهم ولا دينار ، وإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**».

فهذا الشخص لم يدخل النار لأنه ما صلى ولا صام بل لأنه أساء إلى الناس فهو لم يقصر في جانب الأمر ولكنه قصر في جانب الترك والنهي؛ فقد ارتكب المعاصي والمحرمات التي تغضب الله ولذلك قال بعض العلماء قولة حكيمة استنبطها من حديث «المفلس» وهي: أن العبادة ليست فقط في أداء الصلاة والصيام بل في الكف عن أعراض الناس .

إذن فليس المهم هو اكتساب الحسنات فقط ولكن الأهم من ذلك هو المحافظة عليها وإنما لا يكون ذلك إلا باجتناب المعاصي والمخالفات التي تنقص من رصيدك من الحسنات والخيرات فكل مِنّا يكتسب قسطًا من الحسنات والأعمال الصالحة وذلك بأدائه للصلوات وإخراجه للصدقات ولكنه في نفس الوقت لا يستطيع أن يحافظ على هذه المكتسبات التي تعب في تحصيلها بل يجعلها عرضة للنقص والزوال والحبوط والضياع .

* * *

فجعلناها هباءً منثورًا

ولذلك فالعبرة والمحك الحقيقي هو في اجتناب الذنوب والآثام التي تلتهم الأعمال الصالحة وتستأصلها من شأفتها وتفنيها عن بكرة أبيها ولذلك قال عمر ابن عبد العزيز: (ليست التقوى هي قيام الليل وصيام النهار ثم التخليط بين ذلك ولكن التقوى: ترك ما حرم الله فإن وفق العبد بعد ذلك إلى عمل صالح فهو خير يضاف

إلىٰ خير) وقال الإمام أحمد بن حنبل: (أعمال الخير يأتيها الفاجر والبر أما المعاصي فلا يتركها إلا صدِّيق) وما ذلك إلا لأنه خاف مقام ربه وزجر نفسه ونهاها عن هواها.

وانظر إلىٰ الحديث النبوي الذي رواه ابن ماجه في «سننه» عن الرسول ﷺ: «**إني لأعلم أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات مثل الجبال فيجعلها الله هباء منثورًا أمَا إنهم إخوانكم ومن بني جلدتكم ويصلون من الليل كما تصلون ولكنهم إذا خلوا إلى محارم الله انتهكوها**».

وانظر أيضًا إلي الحديث الذي رواه أحمد والترمذي: «**اتق الله تكن أعبد الناس**» ولم يقل: «صلِّ وصم تكن أعبد الناس».

فالعابد بحق هو من ابتعد عن كل ما حرم الله عز وجل وفي حديث الترمذي الذي سنبسط فيه القول بعد قليل أن النبي ﷺ قال: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» ولم يقل: «من حسن إسلام المرء اشتغاله بما يعنيه» إنما آثر جانب الترك علىٰ جانب الفعل لأن الترك كما بيَّنا لايكلف الناس شيئًا فهم فيه سواء وما عليهم إذا أرادوا الخير لأنفسهم والسلامة في دنياهم وأخراهم أن يبتعدوا عن المعاصي والسيئات ولا يسمعوا لدواعي الهوىٰ أو يستجيبوا لنزغات الشيطان.

أما الفعل أي: فعل الخيرات واكتساب الحسنات فهو تحصيل وإنشاء وليس كل الناس قادرًا علىٰ التشييد والبناء وحتىٰ مَن توفرت له القدرة علىٰ الإنجاز فإن وقته قد لا يتسع لأداء كل الواجبات ولذا قامت النيات عند العجز مقام الأعمال كما في الحديث المتفق عليه: «**إنما الأعمال بالنيات**» ولذا من عجز عن بعض ما يفيد مما أمر به فهو معذور بينما لا عذر لمن ارتكب شيئًا مما لا يعنيه مما ورد فيه نهي صريح وصدق الله إذ يقول: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: ٣٦].

كما أن المرء في كل ما يفعل أو يترك فإنه يفكر ويعمل ذهنه فلو أنه ترك ما لا يعنيه لانْحصر همه فيما يعنيه فإذا به قد تفرغ له وبذل فيه أقصىٰ الجهد حتىٰ يجيده بحيث يصبح أحب الأشياء إليه ولا يستطيع الاستغناء عنه طرفة عين، مما يحميه من الارتداد إلىٰ عالم الرذيلة والمعصية مرة أخرىٰ بعد أن ذاق حلاوة عمل الخير ولذة القرب من الله

عز وجل ، وقد ورد في الدعاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**اللهم ارحمنا بترك المعاصي أبدًا ما أبقيتنا وارحمنا أن نتكلف ما لا يعنينا وارزقنا حسن النظر فيما يرضيك عنا**» .

كما أنه لا يستطيع كل واحد منا أن يكون عالمًا ينصح الناس ويدلهم على فعل الخيرات ولا يستطيع أيضًا أن يكون قادرًا على اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ولكن في استطاعته أن يكف عن الناس أذاه وأن يمسك لسانه عن التلفظ بألفاظ السوء ولذا ورد في الحديث المتفق عليه : «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**» وفي حديث أحمد والترمذي أن النبي ﷺ قال لعقبة ابن عامر لما سأله عن النجاة : «**أمسك عليك لسانك**» .

وفي الحديث المتفق عليه : أن أبا ذرّ لما سأل الرسول ﷺ عن أفضل الأعمال فأخبره أنها الجهاد وعتق الرقاب وإعانة الناس فقال له : أرأيت يا رسول الله إن ضعفت عن بعض العمل فقال له : «**تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك**» .

وفي حديث الترمذي وابن ماجه وأحمد : أن معاذ بن جبل رضي الله عنه سأل الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويباعده عن النار فذكر له الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد ثم قال له بعد ذلك : «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله**» . وأخذ بلسانه وقال : «**كف عليك هذا**» فقال معاذ : أوَ مؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له : «**وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصائد ألسنتهم**» .

* * *

نوم الظالم عبادة

فمن عجز عن إيصال الخير إلى الناس فلا أقل من أن يمسك لسانه وأن يكف عنهم أذاه ، وقد استنبط البعض من قول الرسول ﷺ لأبي ذر : «**كف شرك عن الناس فإنه صدقة منك على نفسك**» أن نوم الظالم عبادة واستنبطوا ذلك أيضًا من حديث : « **اتق المحارم تكن أعبد الناس**» وذلك باعتبار أن الظالم أثناء نومه يستريح

الناس من أذاه بينما لو ظل مستيقظًا لانشغل بظلمهم وإيذائهم فيقتصون منه يوم القيامة وذلك بالأخذ من حسناته كما في حديث المفلس ، فضلاً عن طرح سيئاتهم عليه بعد ذلك فكأنه بنومه احتفظ بما لديه من حسنات دون نقصان وكأنه بنومه كف أذاه عن الناس فأخذ ما للصدقة من أجر وثواب .

ومن جهة أخرىٰ لو أننا نظرنا إلىٰ العبادات التي كلفنا الله بها لوجدنا أن كل عبادة تتولىٰ معالجة وإصلاح جانب معين في النفس البشرية وتسهم في تزكيتها : فالصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر كما أن الهدف من الزكاة هو تعويد المسلم علىٰ البذل والعطاء وتخليص نفسه من الشح والإمساك بينما تتولىٰ فريضة الصيام جانب الترك والاجتناب .

فالصيام حتىٰ في معناه اللغوي يعني : الكف والامتناع ، ولكن ليس القصد من الصيام فقط أن تمنع نفسك عن الطعام والشراب ولكن يتحقق الهدف منه بمنعها من كل ما حرم الله من نميمة وغيبة وكذب وخديعة وإيذاء للناس .

ولكن قد يقول قائل : إن كان كل ما يطلب من الصائم هو الكف عن شهوات النفس في أيام الصيام ولم يكن أمامه عمل إيجابي يسد به هذا الفراغ ، لكانت تجربة الصوم انتقاصًا للطاقة الفاعلة في الإنسان وتعطيلاً لها من ناحية دون إمداد أو إشغال لها من ناحية أخرىٰ ، أو بعبارة أخرىٰ إن فريضة الصيام تخلية بدون تحلية أي : أن الصائم يتخلص في صيامه من الرذائل ولكنه لا يكتسب ما يتحلىٰ به من الفضائل أي : إن كانت الخسارة في الصيام مأمونة ولكنه لا ربح فيه أو غنيمة ، فهو وإن كان مأمون العواقب فإنه تجارة لا أرباح فيها ولا مكاسب أو هو من باب أن درء المضار والمفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح والمنافع !

ولكن حتىٰ لو سلمنا بهذا القول السابق بأن الصائم قد حقق التخلية بدون أن يحقق التحلية ، فإن هذا ليس بالأمر الهين بل هو مكسب عظيم وإنجاز يستحق الإشارة والتنويه ، وانظر في ذلك إلىٰ حديث المفلس ، فهو ما انتفع بصلاته ولا عبادته ولا الخير الذي حصله ؛ لأنه بجانب ذلك كان يؤذي الناس فيأخذون من

حسناته يوم القيامة وليس هذا فحسب بل إذا فنيت حسناته ولم يقض ما عليه فإنه يؤخذ من سيئات مَنْ كان يؤذيهم وتطرح عليه ثم يطرح به في النار .

وأيضًا إذا نظرنا إلى الأمر وتدبرناه لرأينا أن الصوم عبادة لها شقان : الشق الأول منها : عبارة عن إعداد وتهيئة وتمهيد للشق الثاني . فإن كان الصيام فيه كف وانتهاء وابتعاد واجتناب فعلى الجانب الآخر ففيه إقبال واقتراب وإنشاء وبناء وإن كان الصوم دعامته الصبر أي : الحبس والمنع ، ففيه أيضًا جانب الشكر فقد وردضمن آيات الصيام قوله عزوجل : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥] .

كما أن الصيام ترتبط به سنة القيام فيؤدي فيه الصائمون صلاة التراويح وتلاوة وختم القرآن الكريم . كما أن صيام رمضان لا بد في آخره من إخراج صدقة الفطر التي هي بمثابة طهرة للصيام من اللغو والرفث فهي أيضًا طعمة للمساكين .

كما أن الصائم الذي خلا جوفه من الطعام طوال أيام صيام رمضان فإنه يصبح شبيهًا بالملائكة الكرام وقريبًا من الملأ الأعلى وعالم النور بعد أن رقَّ قلبه وصفت نفسه وأصبح دعاؤه أدعى للقبول وأن تفتح له أبواب السماء كما أنه يستيقظ كل ليلة في وقت السحر ؛ لتناول طعام السحور وهي فرصة أيضًا للصلاة والدعاء والاستغفار في أوقات الأسحار .

* * *

رمضان شهر الانطلاق

كما أن الصوم يفتح للروح مجال الذكر : ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾[البقرة: ١٨٥] ويفتح أيضًا مجال التضرع والابتهال ولذا جاءت آية الدعاء وسط آيات الصيام ، قال عز وجل : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

إذن فليس الغرض من الصيام مجرد إغلاق منافذ الشهوات المادية بل إفساح المجال للروح أن تنطلق وتسبح في آفاق علوية فالصائم في رمضان يكثر من البذل والإنفاق وإطعام الطعام ؛ لأنه ذاق في شهر رمضان ما يذوقه الفقير طوال العام ، فحينما يعضه الجوع تجود نفسه بالعطاء .

كما أن الصيام يحدث ثورة في حياة الصائم ويقلب أموره رأسًا على عقب وتتغير مواعيد تناوله للطعام وأوقات استيقاظه من النوم مما يخلصه من سلطان العادة وتحكمها في حياته . وهذا يساعده - إن أراد - في التحرر من عادة الدخان التي تصل ببعض الناس إلى حد الإدمان والاستعباد حتى يظن البعض أنه ليس في الإمكان الإقلاع عنها فإذا بالصيام يعيد له ثقته بنفسه وقدراته ويثبت له أنه أقوى مما يظن وأنه يستطيع أن يصيغ حياته من جديد ، وهكذا فالصيام ليس مجرد عملية سلبية بل له كما رأينا جوانب إيجابية كثيرة وله فاعلية وأثر وحضور .

كما أن الصائم حينما يحقق صيامه بالكف عن إيذاء الناس وترك كل ما يغضب الله ، فقد تخلصت نفسه من الموانع والجواذب التي تكبله وتمنعه من فعل ما يرضي الله - عز وجل - ويكون بذلك قد تحرر من العوائق التي تحول بينه وبين الانطلاق إلى عالم الخير مما يجعله يعيش في وفاق مع النفس وينعم بلحظات من الصفاء والطهر بعد أن كان يعيش في حالة صراع مع رغبات النفس يبدِّد فيها الكثير من الطاقة الفاعلة والجهد وذلك للتوفيق بين رغبات النفس الأمارة بالسوء وبين أشواق الروح المتطلعة إلى معالي الأمور .

وهكذا ففي شهر رمضان يتدرب الصائم على هذا النوع من الترك والكف لتتهيأ نفسه بعد ذلك لأعمال الخير والبذل ، فمن ترك المعاصي والمحرمات فقد تهيأ لفعل الواجبات والمأمورات واستطاع أن يفعل ذلك بقوة وهِمَّة ونشاط وذلك بخلاف المنغمس في المعاصي والشهوات ؛ فإن نفسه قلما تنشط للقيام بما فرضه الله عليه ؛ إذ أن قواه تكون موزعة ومشتتة ومبعثرة تتنازعها قوى الخير والشر حائرة مذبذبة لا يقر لها قرار .

وحتىٰ لوفعلت نفسه المأمورات فإنها تفعل ذلك بتثاقل وتكاسل وتهاون فهو متأرجح بين فعل السيئات والحسنات ونفسه تتجاذبها تلك القوتان المتضادتان فهو في قلق واضطراب فهو يصلي كثيراً ويكثر من قراءة القرآن وقد يكثر من الحج والاعتمار ومع ذلك فهو يكثرمن الكذب والاغتياب وإيذاء الناس، ولكن إذا صام كما ينبغي وامتنع من كل ما يغضب الله فإن نفسه تكون قد تهيأت لفعل ما يرضي مولاه. ولو أنه وقف عند حدود الله دون بغي أو تعدٍّ أو طغيان خرج منه أحسن ما فيه ولكان بلسمًا وبردًا وسلامًا علىٰ كل مَنْ يتعامل معه من الناس ولكان مسلمًا بحق ففي الحديث المتفق عليه: « **المسلم من سلم الناس من لسانه ويده**» وزاد البخاري: «**والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** » وأما رواية الترمذي والنسائي: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ،والمؤمن: من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم** » .

وكذلك المجاهد من جاهد هوىٰ نفسه في رضا الله ـ عز وجل ـ فليست القضية مجرد أسماء أو مسميات ولكنها قضية التزام وصيانة للحقوق والأعراض وكف الأذىٰ عن الناس وأداء للأوامر والواجبات .

* * *

اترك ما لا يعنيك

والآن فلنقف قليلاً مع حديث الترمذي وابن ماجه: عن رسول ﷺ أنه قال: « **من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» لما له من علاقة وثيقة بالفكرة التي نحاول أن نجليها وهي التركيز علىٰ جانب الترك والاجتناب والاتقاء . إذ أن محور سورة «الحجرات» يرتكز ويركز علىٰ الاهتمام بجانب النهي والحظر كما هوواضح من اسم السورة ومن تكرار ألفاظ التقوىٰ من بدايتها وفي ثنايا الآيات وأيضًا وجود الألفاظ الشبيهة والقريبة من لفظ التقوىٰ ولفظ الاجتناب كما في قوله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ** ﴾ [الحجرات: ١٢]

وقد آثر الرسول ﷺ ذِكْر الإسلام على الإيمان؛ لأن الإسلام هو الذي يظهر؛ إذ هو الأعمال الظاهرة التي يتأتى فيها الترك والفعل اختياراً ولم يقل: «من إسلام المرء» لأن ترك ما لا يعني لا يتوقف على أصل الإسلام بل هو من حُسْنِه.

وهذا يدل على الدقة من النبي في اقتناء الألفاظ التي تعبرعن المعنى أصدق تعبير.

فقد أشار هذا الحديث إلى الركن الأول في تزكية النفس وهو جانب التخلية وذلك بترك ما لايعني، ويلزم منه الركن الثاني وهو جانب التحلية لأنه من ترك وأعرض عما لا يعنيه فإنه سيشتغل حتمًا بما يعنيه أي بما ينفعه في أمور الدنيا والدين ففي «صحيح مسلم»: «**احرص على ما ينفعك**» وفيه أيضًا: «**أعوذ بك من علم لا ينفع**» وفيه أيضًا: «**إن الله يكره لنا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**».

فالقيل والقال: ما هو إلا صورة من صور اشتغال المرء بما لا يعنيه، كالخوض في أخبار الناس وتتبع ما لا يعنينا من أحوالهم وتصرفاتهم وتفاصيل حياتهم. مما يؤدي إلى وقوع القطيعة بين الناس وصدق مَنْ قال: (من تدخل فيما لا يعنيه لقي ما لايرضيه).

وأيضًا من الصور الأخرى لاشتغال المرء بما لايعنيه الإغراق في المباحات من أمور المعاش: كالطعام والشراب والأمور المتعلقة بالزينة واللباس والزيادة فيها على قدر الحاجة حتى تصير وكأنها من الضروريات ويحدث ذلك تحت تأثير الدعاية المكثفة في وسائل الإعلام بمختلف أنواعها والتي تحاصر الناس ليل نهار وتغزوهم في عقر دارهم وتحثهم على المزيد من الشراء وتعمق فيهم النزعة نحو الاستهلاك.

كماأن ضحالة ما يقدم من المواد الإعلامية يجعل عامة الناس ينشغلون بالأمور التافهة ويهتمون بالكماليات والمظاهر الفارغة حتى صرفهم ذلك عن تزكية نفوسهم وعن التفكير في أمور الآخرة فضلاً عن الاستعداد لها.

وهكذا أصبح إرواء الناس للشهوات والملذات هو شغلهم الشاغل وهمهم

المقعد والمقيم ونسوا أن المباحات إنما جُعلت للاستعانة بها على الطاعات فتكون بهذه النية قربات لهم عند الله ولكن مَنْ استعان بالمباحات على معصية الله فإنه يُحرم منها يوم القيامة ويعاقب على التنعم والانشغال بها في الدنيا، يقول عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الاعراف: ٣٢].

ويقول أيضًا: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[الاحقاف: ٢٠] وقوله أيضًا: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الاعراف: ٥٠ ـ ٥١] وقوله أيضًا: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

كما أن من ترك ما لا يعنيه فقد تهيأت نفسه وتفرغت لفعل ما يعنيه فأقبل عليه وأكثر النظر فيه وبذل كل وسعه في إحكامه وإتقانه فتقوى ثقته بنفسه ويشعر بنشوة الإنجاز وحلاوة النجاح وهذا هو سبيل التقدم والتفوق والإبداع في كل مناحي الحياة وهو أيضًا سبيل الاستغناء عن الغير وذلك بتحقيق الاكتفاء الذاتي والاستقلال مما يحمي مجتمعاتنا الإسلامية من مذلة الحاجة ومرارة الاستجداء ومما يؤسف له أنه كثيراً من طاقاتنا تنفق بعيداً عن حاجات الأمة وتقع خارج متطلبات العصر!

كما أن ترك ما لا يعنينا يحمينا أيضًا من الشقاق والموبقات ومنكرات الأخلاق فما يحدث بيننا من تخاصم وعداوة وبغضاء ما هو إلا بسبب إفراطنا في اللغو والفضول وترك ما يعنينا من معالي الأمور وقَتْل الوقت في المعاصي والشرور، ونسينا أن لن تقوم لنا قائمة إلا باستثمار تلك الطاقات المهدرة وبإنفاق تلك الأوقات المضيعة في ترقية حياتنا وفي العبور من حالة الهوان والتخلف والتبعية إلى عالم الكرامة والصدارة والعزة الحقيقية.

المسلمون ومعالي الأمور

وانظر إلى اهتمامات الناس في مجتمعاتنا الإسلامية الآن؛ لترى كيف أصبحنا ننافس الغرب وكيف انغمسنا في حياة اللهو وفي التسلية والمتع الرخيصة وكيف استهوتنا المسابقات التافهة وجلسات السمر والسهر والنميمة. وبعد أن كنا نحيا في راحة نفس وهدوء وسكينة وصلاح بال أصبح حالنا الآن كالفضولي الذي ينشغل بمتابعة أحوال الناس ويسيل لعابه لمعرفة أسرار حياتهم وتكثر تساؤلاته حول ظروفهم المالية وأحوالهم العائلية فيعيش بسبب ذلك في حيرة وقلق وهَمٍّ دائم وصدق الله إذ يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠١] كما أننا أضعنا الأعمار في متابعة القنوات والفضائيات المتعددة والإغراق في قراءة الصحف والمجلات الماجنة ومسابقات الجمال وعروض الأزياء وغير ذلك من مظاهر الإسراف والإسفاف.

ونسينا قول نبينا ﷺ في الحديث الذي رواه الحاكم والطبراني: «**إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفاسفها**» ونسينا أننا خير أمة أخرجت للناس، وصدق من قال: «نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل»، فمن ترك الطاعات مالت نفسه نحو الرذيلة والآثام فالنفس لا تعيش في فراغ بل تستقطبها قوى الشر والفساد ولذلك فقد شبه الرسول ﷺ ما آل إليه حالنا الآن بالقصعة التي تكاثرت عليها الأيدي، فقد أصبحنا كالفريسة السهلة أو كالكلأ المباح أو كالأيتام على مائدة اللئام.

فالمسلم الآن وبعد أن تغيرت وجهته وتوجهاته فإنه يعيش في تيهٍ وضياع ولو قدِّر له أن ينتبه من غفلته ويستيقظ من غفوته لوجد المسافة بعيدة بينه وبين غايته وأنه في حاجة إلى بذل جهد مضاعف؛ ليستدرك مافاته ويستعيد عافيته بعد أن انشغل بما لا يفيد من توافه الأمور وما ذلك إلا لأنه فقد هُويَّته بعد أن جهل رسالته التي انتدبه الله

لها وهي إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الإيمان .

وما يؤسف له أن وسائل الإعلام الآن ومناهج التعليم تَحُول دون رجوع الأمة إلى مسارها الصحيح؛ فمحتواها عقيم وله أسوأ الأثر على الأجيال الناشئة . فينبغي علينا أن نحذر من مخططات التجهيل والتهميش والإلهاء عن الغاية التي خلقنا الله من أجلها .

والمسلم الحق في شغل شاغل عما لا يعنيه وعن كل ما يصرفه عن رسالته ويلهيه عنها فهو مأمور بأن يبحث في أسرار الكون وأن يفكر في خلق السموات والأرض وهو مشغول أيضًا بالتكاليف التي تزكي القلب وتستغرق الجهد والعمر؛ فالواجبات أكثر من الأوقات والطاقة البشرية محدودة وهو إما أن ينفقها في تزكية نفسه وفيما يصلح الحياة ويرقيها وإما أن ينفقها في اللغو والباطل وفي الإفساد في الأرض ولكنه بحكم رسالته في الحياة مأمور بإنفاقها في الخير والصلاح .

وخطورة الأمر أن المرء إذا أنفق وقته فيما لا يعنيه فإنه يُعاقب بأن تُصرف همَّته إلى ذلك بحيث يتعذر عليه الرجوع إلى الطريق المستقيم ، بأن الله يتخلى عنه ويكله إلى نفسه فيحرم من تأييد ربه وعونه فيخسر دنياه وأخراه وهذا هو عين الخذلان كما قال عز وجل: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾ [النساء: ١١٥] .

فمن علامات إعراض الله عن العبد: أن يجعل شغله فيما لا يعنيه . ومن اشتغل بالفضول حيل بينه وبين معالي الأمور ومن ترك ما ينفعه عوقب بما يضره وإذا سخط الله على قوم شغلهم بأنفسهم ورزقهم الجدل وسلبهم العمل وجعل بأسهم بينهم شديداً .

وفي مقابل ذلك: فمن علامات رضا الله عن العبد: أن يشرح الله له صدره ويجعله يشغل بما يعنيه ويرقيه في درجات الكمال ويقربه من ساحات القرب والرضوان . كما أن ترك ما لا يعني حفظ للعباد من دنو الهمة وفتور العزائم والرضا

بفتات الموائد ، وتربية النفس على ترك ما لا يعني يعين على تزكية ملكات الإنسان وتوجيهها لأداء الواجبات بدلاً من تشتيتها في شعاب متفرقة ، فالسمع والبصر رسولان للقلب ، فإن شغلا بتوافه الأمور امتلأ القلب بالفضول وحرم من الوصول ؛ إذ لا يبقى فيه مكان لشيء نافع أو مفيد . ولو أمسك الناس عما لا يعني لكثر الخير ولظهر الحق ولعم النفع في ربوع العالمين .

وكما ينص الحديث أن من ترك ما لا يعنيه فقد حسن إسلامه أي : فهو محسن في ذلك ، فهذا هو منطوق الحديث . أما مفهوم الحديث أي : ما يفهم ويستنبط منه : أنه في مقابل ذلك أن من لم يترك ما لا يعنيه فهو ليس بمحسن بل هو مسيء أي : أنه ما أحسن إلى دينه بل أساء إليه . وما أكثر المسيئين من المسلمين إلى دينهم في زماننا هذا بعد أن أساءوا عرضه وشوهوا حسنه وبعد أن انشغلوا بدنياهم عن أخراهم وبسفاسف الأمور عن معاليها واتجهوا إلى ما يُدسِّي نفوسهم وتركوا ما يزكيها ! فهووا من القمة إلى السفح وأصبحوا كغثاء السيل لا وزن لهم ولا قدر .

ندعو الله أن يقيض لهذه الأمة علماء ربانيين ليأخذوا بأيديها إلى معالي الأمور ويضعوا أقدامها على جادة الطريق وما ذلك على الله بعزيز فهو ولي ذلك وهو على كل شيء قدير .

* * *

البر والإثم

والدين الإسلامي أموره واضحة وميسرة ليس فيها غموض أو التباس فهو يخاطب الفطرة التي فطر الله عليها الناس كما أنه يحرك الخير الكامن في أعماق النفس ، فعن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال : «**البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع**

عليه الناس» رواه مسلم في «صحيحه» .

وعن وابصة بن معبد ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «**أجئت تسأل عن البر؟**» قلت: نعم، قال: «**استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك. البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر**» رواه أحمد في «المسند»، وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: حفظت عن النبي ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة**» رواه أحمد والترمذي والنسائي. وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ ما الإيمان ؟ قال : «**إن سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن**» ، قال: وما الإثم؟ قال: « **إذا حاك في نفسك شيء فدعه**» ، رواه أحمد والنسائي .

ولنا ـ أيضًا ـ وقفة مع هذه الأحاديث لما لها من صلة وثيقة بالفكرة التي نعالجها ونجليها. وهذه الأحاديث السابقة كلها تدور في فلك واحد وترسي قاعدة حكيمة لمعرفة الحق وتقبله وللنفور من الباطل وتضع لنا أيضًا الميزان العادل لمعرفة ذلك ، فإذا كان العمل مما تطمئن له النفس المؤمنة ولا تخشى ظهوره للناس ويرضاه ذوو الفطر السليمة، فهو البر وهو ما أمر الله به ورسوله ﷺ. وإن كان مما يحيك في النفس ويبعث على الريبة والشك ويخشى اطلاع الناس عليه فهو الإثم الذي ينبغي تركه على الفور.

ولنأخذ مثالاً على ذلك بالصدق: فترى الرجل يقول الصدق ولا يبالي بغضب الناس عليه ولو ترتب عليه ضرر دنيوي لكنه تجده مرتاح الضمير مطمئن القلب. وفي المقابل فقد يكذب المرء لينجو من لوم الناس وعتابهم ولكن لا ترتاح نفسه إلى ذلك بل تراه قلقًا معذب الضمير لا تغمض له عين حتى يعترف ويقول الحق ويتوب إلى الله ـ عز وجل ـ إلا إذا كان منافقًا فإنه يحلف على الكذب وتطيب نفسه بذلك أنه نجا من معاتبة الناس لأن قلبه خلا من الإيمان فهو لا يريد إلا مصلحته في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق.

وإنك حقًا لترىٰ النفس هادئة مطمئنة وذلك حينما تأتي بأفعال البر لأن هذا يتوافق مع ما جبلت عليه من الخير ولكن إذا ما أقدم المرء علىٰ اقتراف الإثم فإنه سيجد في نفسه الشعور بالحرج والضيق والإحساس بالذنب. وذلك بسبب تصارع دوافع الخير مع نوازع الشر داخل النفس فإن كانت الغلبة لقوىٰ الخير انشرح الصدر واطمأن القلب، وإن ركب الإنسان رأسه وغالط نفسه واتبع هواها فإنه بعد أن تهدأ حدة الأمور وتنقشع الغشاوة عن العيون ويصحو الضمير فإنه سيحاسب نفسه علىٰ ما كان منها من تعد للحدود وهضم للحقوق. فهو إن استطاع أن يتخطىٰ الحواجز المادية ويتفلت من الموانع الخارجية فإنه لن ينجو أبدًا من حساب النفس وضيق الصدر بل سيحرم من نعيم العيش ولذيذ النوم وقد يصل الأمر - إن هو أصر علىٰ الإثم وتمادىٰ في الغي - إلىٰ حدوث اضطراب في النفس أو اختلال في العقل. وما كان أغناه عن ذلك لو أنه ترك من أول الأمر ما حاك في النفس وما تردد في الصدر!

ومثال آخَر للبر الذي تطمئن إليه النفس ويرتاح إليه القلب: هو إعانة الناس وبذل المعروف لهم والعفو عن مسيئهم؛ لأن القاعدة في ذلك أن تحب لأخيك ما تحبه لنفسك وترضىٰ له ما ترضاه لنفسك وتكره له ما تكرهه لنفسك فالقاعدة في داخلك وأنت المقياس.

فعامِل الناسَ بما تحب أن يعاملوك به ولا تعاملهم بما تكره أن يعاملوك به فأنت تحب أن يعاملوك بالعفو إذا أسأت أو أخطأت فلتعفُ إذن عن إساءتهم. وأنت تكره أن يعتدي أحد علىٰ محارمك فلتعفَ أنت عن محارمهم. وفي الحديث المتفق عليه « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» وفي حديث الإمام مسلم « **من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأتِ إلى الناس الذي يحب أن يُؤتى إليه** ».

إذن فأنت تعرف من تلقاء نفسك وتشعر من داخلك أن هذا العمل الذي تباشره الآن هو من أعمال الخير التي ينبغي أن يفعلها المرء أو أن هذا العمل الذي تتردد في

فعله ولا ترتاح إليه نفسك إنما هو من أعمال الشر التي ينبغي على المرء تركها واجتنابها بالكلية .

فلا عذر لك إذن وقد أعطاك الله البوصلة الداخلية ومنحك الترمومتر الذاتي الذي تقيس به الأمور وتحكم به على الأشياء وتعرف به وجه الصواب .

* * *

استفت قلبك

فأنت تعرف ذلك من نفسك فما بالك وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فيهما كل ما يحتاج إليه المسلم من أحكام ومع ذلك فقد أبى فضل الله إلا أن يجعل من قلب المؤمن وضميره حكمًا لكل ما يلتبس عليه . فالمسلم يرجع إلى أهل الذكر يسألهم فإن لم تطمئن نفسه فعليه أن يقف ويستفتي قلبه . فمهما حاول الناس أن يجدوا لك رخصة أو تبريرًا أو مخرجًا مما أنت فيه الآن فإن هذا لن ينجيك أمام الله الذي يعلم السر وأخفى فالمفتي يفتي بغلبة الظن وحسب الظاهر وما تجمع له من أدلة وقرائن .

ففي الحديث المتفق عليه عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ أن الرسول ﷺ قال : «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له على نحو ما أسمع منه ،فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من نار فليأخذها أو ليتركها** ».

فقد بين لهم الرسول ﷺ أنه يحكم لهم على ضوء ما يقدمون له من أدلة وأنه لا يستطيع أن ينتظر حتى يصل إلى العلم اليقيني في كل صغيرة وكبيرة تعرض عليه . ولو توقف عن الحكم حتى تأتيه الأدلة المفيدة لليقين لتعطلت مصالح الناس ولذلك فهو يحكم بما ترجح له من الأدلة أو بغلبة الظن .

وقد لا يكون مع المظلوم بينة وقد لا يتضح للقاضي وجه الحق فيحكم بغلبة الظن

فلا يوافق حكمه الصواب كما حدث مع داود ـ عليه السلام ـ مع المرأتين حينما حكم بالغلام للكبرىٰ . وقد يكون ذلك بسبب ما لدىٰ الظالم من بلاغة لسان أو فصاحة بيان وقدرة علىٰ عرض قضيته بأسلوب ساحر يأخذ بالألباب . فقدرة الإنسان علىٰ التزوير والتلبيس والتلفيق ليس لها حدود ولا سيما إذا لم يكن في قلبه مخافة الله عز وجل أو لم يكن له وازع من دين أو نصيب من خلق كريم أما المؤمن فإنه لا يمكن أن يأخذ ما ليس له بحق ولو حكم له القاضي به ؛ لأنه يعلم أن الله مطلع عليه ولا يخفىٰ عليه من أمره شيء .

فقد يكون بعض القوم أقدر من خصمه علىٰ الإقناع والمجادلة وتزيين حجته بالباطل فلو أن القاضي حكم لصالحه فحكم القاضي لا يحرم حلالاً أو يحلل حرامًا ، إنما يقطع الخصومة ويحسم الأمر المتنازع فيه ولا يفيد براءة الذمة بل يعطي لمن حكم لصالحه ميزة ظاهرية يستفيد بها بين الناس ولكن يظل صاحب الحق كذلك عند الله ، ويظل الآخر ظالمًا ومستحقًا للعقوبة عند الله ؛ لأنه ضلَّل القاضي بما زيف من أدلة فجرمه عند الله أكبر فهو إن استطاع أن يكره لسانه علىٰ النطق بغير الحق ولكن يوم القيامة سيختم الله علىٰ فمه وستنطق أعضاؤه وتكون خصمًا له يدينه وسيفتضح أمره أمام الناس كما قال عز وجل : ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[يس: ٦٥] .

وبذلك حرر الإسلام ضمير الإنسان من جميع الضغوط الخارجية ومن كل المؤثرات فلا سلطان لقوىٰ خارجية علىٰ قلب الإنسان .

والرسول ﷺ يلفت من جاء يسأله ويستفتيه إلىٰ قلبه ويحيله إلىٰ ضميره ويبين له أن المسلم يهديه إيمانه وفطرته التي فطر الله الناس عليها إلىٰ معرفة الحق فإذا أشكل عليه أمر فليرجع إلىٰ قلبه يطلب منه الحكم الذي لا شك فيه ؛ لأنه إن خدع الناس فلن يخدع نفسه ثم يعطيه علامة أخرىٰ علىٰ ذلك من نفسه ، فإن القلب إذا سكن واطمأن للأمر فهو من البر الذي يرضىٰ الله عنه ويجزي فاعله عليه فطمأنينة القلب

هي العلامة على أن هذا العمل هو من أعمال الخير والبر يقول عز وجل : ﴿ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١] . ويقول أيضًا : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ ﴾ [يونس:٩]. ويقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] . ويقول : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] . ويقول : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] . ويقول : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧]. ويقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] .

أما إذا كان الأمر مما يورث النفور والريبة والتردد والكراهية في القلب فهو مما لا يرضاه الله ـ عز وجل ـ وعلى المرء أن يبتعد عنه فهو من الإثم الذي يأثم فاعله عليه . فالحكم ما تجده في قلبك من انشراح صدر أوتردد ونفور وقبض وهو ما يعبر عنه بالضمير الحي أوبالحس الأخلاقي أو الفطرة التي فطر عليها الخلق .

وحتى الحيوان الأعجم يشعر بذلك فبائع السمك إذا أعطى القطة سمكة فإنها تأكلها في طمأنينة وهدوء أما إذا قامت هي بسرقتها أو بخطفها فإنها تفعل ذلك على وجه السرعة وهي تتلفت وتنتظر غفلة من البائع ؛ لأنها تشعر من داخل نفسها أنها تأخذ ما ليس لها بحق .

والمرء يشعر من أعماقه أن ما فعله هو إثم يغضب اللَّه عزَّ وجلَّ، والظالم يعرف من نفسه أن ما فعله هو ظلم ، إذ أن ما يُفتي به الناس لا يُغيِّر شيئًا من حقيقة الأمر ، فقد يسمع المرء كلامًا يرضيه ويبرر له عمله أمام الآخرين ، لكنه يشعر من داخل نفسه بالحرج والقلق والضيق .

فالمسلم الحق ذو الضمير اليقظ والشعور الحي والفطرة النقية والوجدان المرهف والشفافية هو الذي يملك المقياس الذاتي الذي يستطيع من خلاله النظر إلى الأمور نظرة سليمة ، وأن يحكم عليها حكمًا صحيحًا . فهو لا يكيل بمكيالين وهو لا يفعل شيئًا في السر يستحيي أن يفعله في العلن ، فالقيم لديه ثابتة والمبادئ عنده راسخة لا

تتغير أو تتلون تبعًا لمنافع الدنيا أو لمصالحه الشخصية أو بسبب ظروف قهرية.

ولذلك فهو لا يلجأ إلى الحيل الفقهية أو يعوِّل على رأي مرجوح أو قول ضعيف أو يأخذ برخصة مبنية على احتيال أو تلفيق فهو يعلم أنه إن فعل ذلك فهو لا يخدع إلا نفسه، فهذه الأساليب الملتوية لا تنطلي على ربه الذي يعلم السر في السموات والأرض. فالمرء إذا دخل قلبه نور الهداية وخالطته بشاشة الإيمان انشرح صدره للحق وتقبله عن طيب خاطر ورضا نفس، ونفر من الباطل، وحصل في قلبه منه الشك ولم يقبله أو يرضاه طرفة عين.

وإذا ما تردد القلب في الحكم على شيء فعلى المرء أن يتوقف حتى يظهر له وجه الحق ويتبين له حقيقة الأمر. والحلال بين وكذلك الحرام. ولذلك فالتوقف إنما يكون فقط عند الشبهات. فإن لم ينشرح له به صدراً أو ضاق بها ذرعًا فعليه أن يخالف فيها هوى النفس وألا ينصاع إلى ما ارتاح إليه الطبع أو ألفته النفس. وبذلك يكون اكتساب القلب للإحساس المرهف ويكون تنمية الوعي والوجدان الحي القادر على التمييز والفرز وقياس الأمور لا بهوى النفس ولكن بمقياس الشرع.

والنفس البشرية بحكم فطرتها السوية التي فطرها اللَّه عليها فإنها تميل إلى الخير وتعرف الحق وتسكن إليه ولذلك سمَّى اللَّه ما أمرنا به «معروفًا» وكأن الناس قد تعارفوا عليه ومالت قلوبهم إليه، وسمَّى ما نهانا عنه «منكرًا» وكأن الناس قد أنكروه وعافته نفوسهم، قال عزَّ وجلَّ في شأن رسوله ﷺ: ﴿**يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾ [الاعراف: ١٥٧].

ولكن حينما فسدت أخلاق الناس وانحرفت فطرتهم وحادت عن الصراط وذلك بتأثير وسائل إعلامٍ ليست في أيدٍ أمينة أكبر همها تزيين الأمور القبيحة والترويج للرذيلة، وأيضًا بسبب وجود أجهزة التعليم تتبنَّى أساليب عتيقة وسياسات تربوية عقيمة مما أدى إلى نفوق بضاعة البِرِّ والتَّقْوى وشيوع مظاهر العقوق والفوضى وأفول نجم الفضيلة وبزوغ نجم الإثم والرذيلة حتى أصبح الناس يتعاونون على الإثم

والعدوان، لا على البر والتقوى ومكارم الأخلاق، وضعفت روح الخير وفعل البر وحب الفضيلة، وهو ما كان بمثابة السدود المنيعة والقلاع الحصينة التي كانت تقف أمام نوازع الشر والإثم والرذيلة.

واختلطت الأمور وأُمر بالمنكر ونُهي عن المعروف، واضطربت المقاييس وتساوى الطيب والخبيث، والحسن والقبيح، وذلك بعد أن وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله، فكانوا ضالِّين مُضلين، وعاثوا في الأرض مفسدين، وانطلقت الشهوات من إسارها، وتفلتت النزوات من عقالها، وأصبحت البشرية في حالة يُرثى لها.

* * *

قلب المؤمن دليله

وهكذا إذا كان هناك نص شرعي صريح وخالفه القلب فلا سماع لهذا القلب ولا طاعة؛ لأن فطرته قد تغيرت ولم تعد على صفائها الأول وإلا لو بقي قلبه على أصل الفطرة لدار قلبه مع النصوص الشرعية حيث تدور ولرضي بما رضي الله به ولنفر مما حرمه الله عليه.

وعلى المسلم أن يبقي قلبه على نقائه وذلك بالتفكر في دار البقاء وبالابتعاد عن المعاصي والآثام وبالإكثار من الطاعات وقراءة القرآن وباتقاء الشبهات خشية الوقوع في الحرام وبهذا يبقى معه هذا النور الهادي الذي يبين له الحق وينير له الدرب ويهتدي به إلى الصواب وعندئذٍ ينطبق عليه القول الشائع: «قلب المؤمن دليله».

فالله قد فطر عباده على الخير وعلى معرفة الحق وقبوله والذود عنه وركز في الطباع محبة ذلك والنفور من ضده وإلا لما آمن أحد من البشر بمن أرسله الله من الرسل، ولذا أخذ الله من الأزل الميثاق من البشر على أنه الواحد الأحد وهم لا يزالون في عالم الذر في ظهر أبيهم آدم وأودع في فطرهم حب الحق وذلك قبل أن

تنزل الأرواح في الأجساد وقبل إغواء الشيطان لبني الإنسان كما في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾[الاعراف: ١٧٢-١٧٣] وانظر أيضًا إلى قوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

فقد خلق الله عباده حنفاء كلهم ولكن جاءت الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحل لهم ربهم وأمرتهم بأن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا كما ورد ذلك في «صحيح مسلم». ولولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لحلقت قلوب العباد في ملكوت الله ولو حافظ الإنسان على نقاء فطرته وأصل خلقته ولو انقشعت تلك الغشاوة عن عينيه لخرجت الحكمة من بين شفتيه. ولما فارق الحق قلبه أو سريرته ولكان أقرب إلى عالم الملائكة وفي الحديث المتفق عليه: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**».

فالمؤمن الصادق يتميز بأنه يملك حاسة إيمانية دقيقة ومرهفة تنشرح لفعل الطاعات وتنقبض عند فعل المعاصي والسيئات فهو إذا فعل حسنة سرته سروراً يحمله على مضاعفة الجهد ومتابعة نشاطه فيكون ذلك حافزًا له على فعل المزيد من الحسنات وإذا اقترف سيئة ساءته سوءًا يحمله على التوبة والندم كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الاعراف: ٢٠١]. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

فلما أفشى أبو لبابة رضي الله عنه سر النبي ﷺ إلى يهود بني قريظة لما أرسله

إليهم أدرك على الفور أنه أخطأ وفعل ما لا ينبغي له فعله فربط نفسه في سارية المسجد النبوي وحلف ألا يحله أحد من وثاقه إلا النبي ﷺ .

وهكذا كان السلف الصالح إذا أذنب أحدهم ضاقت عليه نفسه وضاقت عليه الأرض بما رحبت وامتنع عن سائر الملذات الحسية واجتهد في محو أثر المعصية ويظل هكذا قلقًا لا يقر له قرار حتى يدرك أنه قد أرضى ربه فيعود إلى حياته الطبيعية .

وهكذا جعل الله لكل البشر الوسائل التي تحملهم على احترام منهج الحق ومن أقوى هذه الوسائل الفطرة التي تمكن صاحبها من أن يفرق بين الحق والباطل هذا إذا كانت سليمة لم يفسدها صاحبها وإلا تبلدت واستوى عندها الإثم والبر .

ولو أن القلب خلص من الأهواء وتجرد من الشهوات لميز بين الحق والباطل ولعرف وجه الصواب ولجالت الروح في ملكوت السموات ، فتَفقَّدْ قلبك دائمًا وحافظ على سلامته ونقِّه من الشوائب والأكدار .

ولذلك ينبغي على المسلم أن يتمسك بأمور دينه وأن يلتزم التزامًا كاملاً بأحكام الشرع حتى لا يدخل تحت قوله عز وجل في معرض الحديث عن اليهود : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] أو يدخل تحت قوله عز وجل في شأن المنافقين : ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ﴾ [النساء: ١٤٣] .

فالالتزام الكامل يجعلنا ممتثلين لقوله عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨] ، وإنما ذكر الشيطان بعد أن أمرهم بالدخول بالكلية في الإسلام وذلك لأن الشيطان لن يرضى بالتزامهم الكامل بتعاليم دينهم بل سيسعى جاهداً ليصرفهم عن طاعة ربهم وذلك بتزيين المعاصي لهم وإلقاء العداوة بينهم ولذا ورد في الحديث الذي رواه مسلم : **«إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم بعد اليوم لكنه رضي بما دون ذلك بما تحقرون من أعمالكم وبالتحريش فيما بينكم»**.

ولذلك فالمؤمن الحق لا يمكن أن يجمع بين الحلال والحرام أو بين الحق والباطل فمقتضى الإيمان عدم الجمع بين المتناقضات . يقول عز وجل: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الاحزاب: ٤] ، فالمؤمن منسجم مع نفسه ، وأفعاله تعكس طبيعة الإيمان الذي وقر في قلبه ، قد استقام على ما أمره به ربه يمضي على الدرب لا يلوي على شيء ونصب عينيه رضا ربه عز وجل ينطبق عليه قوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] ، فالمؤمن له مصدر واحد للتلقي فهو يأخذ عن ربه عز وجل وعن نبيه المعصوم ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

هو ليس كلاً مباحًا لكل من هب ودب أو حقل تجارب يجري عليه من شاء من الناس ما يعنُّ لهم من نظريات وأفكار وليست حياته خليطًا من التناقضات كما يحدث لكثير من الناس في هذا الزمان .

وليست القضية في أن نفعل أعمال الخير فكلنا يفعل ذلك فمن منا لا يصلي أو يتصدق أو يصوم ولكن المحك الحقيقي هو ترك المعاصي والذنوب التي تغضب الله عز وجل والابتعاد عن كل ما فيه إيذاء للخلق .

* * *

حياتنا خليط من المتناقضات

ولكن مما يؤسَف له أن المسلم الآن تراه يصلي في المسجد ويصوم في شهر رمضان وفي أشهر الحج يتجه إلى مكة لأداء المناسك ومع ذلك فهو لا يرى بأسًا في أن يجلس الساعات الطوال كل يوم أمام جهاز التليفزيون؛ ليشاهد المسلسلات الهابطة والأفلام الخليعة بما فيها من مناظر العري التي تخدش الحياء وتذبح الفضيلة وتراه أيضًا يشارك في مجالس الغيبة والنميمة ويخوض في أعراض الناس دون أن يشعر

بإثم ما يفعل أو بقبح ما يأتي ، وعدم شعوره هذا هو وحده الطامة الكبرىٰ .

وتراه أيضًا يجلس علىٰ المقاهي إلىٰ ساعة متأخرة من الليل يدخن «الشيشة» ويلعب «الطاولة» بينما يهمل كثيراً في تربية أولاده ويبخل عليهم بنصيحة تنفعهم في أمور دينهم ودنياهم وتراه لا يبدي اعتراضًا علىٰ عدم ارتداء بناته الحجاب الشرعي ويتركهن يخرجن إلىٰ الطريق سافرات يُثِرنَ الشهوات ويهيجن غرائز الشباب .

وإذا كان يوم زفاف ابنته فلا مانع لديه من إنفاق المال بإسراف وسفه وذلك في إقامة الحفل في أحد قاعات الفنادق الكبرىٰ والذي تحييه نخبة منتقاة من المغنين والراقصات ويجلب إليه ما لذ وطاب من الطعام والشراب بل وتراه يتخلىٰ عن اتزانه ووقاره لينافس الشباب في الرقص والغناء ولا بأس للعروس أن تخلع حجابها وحياءها في هذه الليلة وتظهر مفاتنها أمام الأغراب أليست ليلة العمر وكل شيء حولها يشجعها علىٰ المجون والانحلال بل ترىٰ بعض المدعوات يرتدين الحجاب وإذا تعجبت كيف يجتمع الحجاب والالتزام مع هذا الفجور والعري قيل لك لابد من مراعاة الأحوال ومجاراة الناس .

وهكذا أصبح سلوك المسلم المعاصر خليطًا من المتناقضات ومن المضحكات المبكيات فهو يركع مع الراكعين ومع الصائمين يصوم ومع اللاهين يلهو ويخوض حتىٰ غدت مجتمعاتنا الإسلامية تشبه إلىٰ حد كبير المجتمعات الغربية التي انسلخت عن قيم الدين منذ زمن بعيد وألقت بتعاليمه وراء ظهرها وراحت تشرع لنفسها وتفعل ما يحلو لها فضلَّت وأضلَّت وشقِيت وأشْقت وذلك بالرغم مما أحرزته من رقي مادي إلا أن أبناءها أصبحوا الآن يئنون تحت وطأة الأمراض العصبية بعد أن فقدوا طمأنينة النفس وراحة البال ونفخة الروح التي تفرق بين الإنسان المكرم والحيوان الأعجم .

* * *

المسلم الحق

لكن المسلم الحق لا يجامل على حساب دينه ولا يساير أهواء الناس ويظل مستمسكًا بتعاليم الشرع لا تلين له قناة مهما كلفه ذلك من تضحيات جسام أو ضاع عليه حطام من الدنيا فانٍ، وهو يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله وإن جفاه الناس وتنكرت له الدنيا بأسْرِها فهو أبعد ما يكون عن النفاق أو أن يكون له وجهان أو قلبان بل يظل صابرًا صامدًا لا يتغير أو يتلون أو يبدل حتى يلقى الله ربه عز وجل .

وانظر في ذلك إلى قوله عز وجل ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً**﴾ [الاحزاب: ٢٣] وفي الحديث المتفق عليه: « **لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى تقوم الساعة وهم على ذلك**» .

ولكن المسلم الحق لا يعتزل الدنيا أو يزهد أو يحرم ما أحله الله من الطيبات بل يختلط بالناس ويأخذ بأيديهم إلى الله . وهو أيضًا لا يخاصم العلوم الحديثة أو يرفض مخترعات العصر بل يأخذ بحظ منها وافر ويساهم في رقي البشرية وتقدمها على منهج الحق والخير ولكنه يضع رضا مولاه نصب عينيه فالجنة هي غايته الكبرى التي يسعى إليها فهكذا علَّمه دينه وهكذا كان سلفنا الصالح حينما سادوا الدنيا وقادوا الأمم وجعلوا البشرية تعيش أزهى عصورها وتنعم بالسعادة والأمان .

وذلك حينما كان كل واحد منهم قرآنًا يمشي على قدمين يجسد بسلوكه تعاليم الإسلام فأول آية في قرآن ربه نزلت من السماء كانت: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ [العلق: ١] وقال عز وجل: ﴿ **وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص: ٧٧] وفي الدعاء قوله عز وجل: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ٢٠١] .

وهو يصل إلى أعلى المراكز العلمية ويتقلد أرفع المناصب الدنيوية ولكنه إذا ما سمع المنادي ينادي: (حي على الصلاة، حي على الفلاح) هرع إلى المسجد ليعلن ولاءه بين يدي مولاه وليجدد البيعة مع ربه عز وجل وهو يقوم خفيفًا نشيطًا لأداء صلاة الفجر مع إخوانه في بيت الله فالصلاة خير من النوم.

وهو لا يغش أو يخدع أو يظلم أو يكذب بل يجهر بكلمة الحق ولا يخشى في الله لومة لائم ولكنه ليس بالعياب أو اللعان وليس بالساخر أو الفاحش أو البذيء بل هو صمام الأمان، هو شامة بين الناس، هو في سلوكه ومعاملاته مثل يحتذى به وعلم يشار إليه بالبنان.

وهكذا اتضحت لنا الأمور الآن فالمؤمن الحق يكون دائمًا على حذر وتوقٍّ خشية الوقوع في معصية تجلب له سخط الله فهذا مما يتعوذ منه ففي الدعاء: «**أعوذ بك أن ينزل بي غضبك أو يحل عليَّ سخطك**». فنزول الغضب من الله هو أخوف ما يخافه المؤمن ويخشاه وهو ما يحاول بكل جهده أن يتحاشاه، فهو لا يبالي بالدنيا أقبلت أم أدبرت طالما أن ربه راضٍ عنه غير غضبان كما ورد في الدعاء: «**إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي**» وفي محكم التنزيل: ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾ [طه: ٨٤].

ولذلك فالمؤمن يكون دائمًا على أهبة الاستعداد فعدوه الشيطان لا يهدأ ولا ينام بل يقف له بالمرصاد يترقب منه ثغرة أو عثرة ليسارع بالانقضاض.

وقد تكون المعصية في أولها صغيرة لا يشعر بها صاحبها ثم تكون لها أسوأ العواقب وقد يموت الإنسان قبل أن يحدث توبة فالموت يأتي بغتة والأمور بخواتيمها؛ ولذلك يحذر المؤمن أشد الحذر خشية أن يحبط عمله وهو غافل لا يشعر فيدخل تحت الوعيد الشديد الوارد في هذه الآية الثانية من سورة «الحجرات» والتي نحن بصدد تفسيرها الآن وهي قوله عز وجل: ﴿**أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾

وأيضًا فقد يتغير الإنسان شيئًا فشيئًا وهو لا يشعر بذلك، فلا ينتبه إلا والقلب قد علاه الران وإذا بالندم بعد فوات الأوان . فعلى المؤمن ألا يغتر بحاله وأن يراجع نفسه ولا يغفل عنها طرفة عين ولا سيما في زماننا هذا الذي كثرت وانتشرت فيه الفتن التي تصرف الإنسان عن سلوك طريق الحق ، فقد يكون الإنسان مقيمًا على معصية وهو لا يشعر بل ويرى أنه على الحق والصواب كما قال عز وجل: ﴿ **قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤].

ولذلك فعلى المؤمن أن يتفقَّد قلبه ويعرض عمله على كتاب ربه وسنة نبيه ﷺ فلعله أن يكون قد تسرب إلى داخل قلبه بعض الشوائب التي تعكر صفو النفس فيسعى من فوره في إزالتها حتى يحتفظ بصفحة قلبه على حالها من النقاء والجلاء وحتى تبقى نفسه كالعهد بها صافية على الدوام.

* * *

التجرد من الإيمان

فالنفس شأنها عجيب والشيطان لا يكف عن الإغواء والتلبيس فهو يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق . وانظر إلى الإنسان حينما يعصي ربه وتزل قدمه ويستجيب لأهواء نفسه الأمارة بالسوء ويسمع لوسوسة الشيطان وهو عدو له لدود فإنه في هذه اللحظة التي يعصي فيها يكون قد تجرد من الإيمان أي: لا يكون من المؤمنين بل يدخل في زمرة المشركين والظالمين.

فالمؤمن حينما يعصي ربه فإنه ينزع عنه لباس الإيمان والتقوى الذي كان يستره ويحميه ففي الحديث المتفق عليه: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» .فقد

نفى النبيﷺ عنه الإيمان حالة اقترافه للمعاصي والآثام لأنه لو كان مؤمنًا لمنعه إيمانه من ارتكاب هذه المعصية وحال بينه وبين الوقوع فيما يغضب الله عز وجل .

ولكن أين ذهب رصيده من الإيمان في لحظة ارتكاب المعاصي والآثام؟

يوضح لنا الرسول ﷺ ذلك في الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود : «**إذا زنى العبد خرج عنه الإيمان فكان فوق رأسه كأنه ظلة ثم إذا أقلع رجع إليه الإيمان**» .

إذن فالإيمان يخرج عنه ولكن يبقى فوق رأسه ينتظر ويترقب فإن تاب صاحبه من قريب عاد إليه وإن أصر على معصيته واستمر في ارتكاب الذنوب أخذ الإيمان في الارتفاع والابتعاد عنه أكثر وأكثر حتى يتعذر عليه الرجوع إليه بعد ذلك وهذا هو الضلال البعيد إلا من رحم الله عز وجل .

إذن في قلب العبد لا يجتمع إيمان ومعصية في نفس اللحظة فلا يمكن أن يجتمع النقيضان في مكان واحد وفي نفس الوقت بل يدفع أحدهما الآخر ، فلا يجتمع نور وظلام في نفس المكان والزمان ، إما ليل وإما نهار ، لأنه لا بد أن يتغلب أحدهما على الآخر ويطرده من المكان كما قال عز وجل : ﴿**وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ**﴾ [يس: ٣٧] وقال عز وجل : ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ**﴾ [فاطر: ١٩-٢٢] . ويقول أيضًا : ﴿**قُل لاَّ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ**﴾ [المائدة: ١٠٠] ويقول عز من قائل : ﴿**مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ**﴾ [الاحزاب: ٤] . فلا يمكن للأم أن تكون زوجة ولا للزوجة أن تكون أمًّا في نفس الوقت .

وهكذا فكأن الإيمان سربال يُلبسه الله من يشاء من العباد فإذا فعل العبد معصية نزع الله عنه الإيمان فإذا تاب وأناب رد عليه إيمانه وأعاده إليه ، يقول عز وجل : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ [الاعراف: ٢٠١]

OBEIKAN.COM

ويقوي هذا المعنى حديث مسلم في «صحيحه»: «**الصيام جُنَّة**» وزاد النسائي في رواية: «**الصيام جُنَّة ما لم تخرق بغيبة أو كذب**».

فوجود الإيمان في قلب المؤمن عاصم له يمنعه من ارتكاب الذنوب فهو كالجُنَّة وهي: الدرع الواقي الذي يلبسه المقاتل ليتقي به شر عدوه.

فالإنسان في رمضان يساعده الصيام على ترك المعاصي والإقلاع عنها ولكن الغيبة وغيرها من الرذائل تبطل مفعول هذا السلاح الرباني وتصبح هذه الجُنَّة المحكمة الحلقات بها ثقوب وخروق كثيرة وعندئذ فإنها لا تحقق الهدف الذي صنعت له ولذلك فعدونا الشيطان يبحث جاهداً عن ثقب أو ثغرة في هذه الجُنَّة أو الدرع ليتسلل منه داخل الحصن وليعيش في القلب ويسيطر عليه ويقود صاحبه إلى موارد التهلكة مستغلاً لحظة الغفلة التي اعترت القلب أو نقطة ضعف أصابت صاحبها في مقتل.

* * *

من صور الشرك

ولكن كيف يكون المؤمن إذا عصى ربه مشركًا؟ أو كيف يكون المرء أقرب إلى الشرك منه إلى الإيمان؟ كما قال عز وجل في شأن المنافقين: ﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ**﴾[آل عمران: ١٦٧]؟

إن العبد حينما يعصي ربه ويخالف أمره فإنما يكون قد اتبع هواه وأطاع الشيطان ويكون بذلك عبداً لهواه وللشيطان، يقول عز وجل: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية: ٢٣] أي: جعل من هواه إلهًا يعبد من دون الله، ويقول أيضًا: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يس: ٦٠] ولكن ليست عبادة الشيطان بأن نركع له ونسجد، بل عبادته هي طاعته فيما يأمر به والاستجابة لوسوسته ومخالفة هدى الله، وبذلك نكون قد جعلنا من هوى النفس

ومن الشيطان نداًّ لله عز وجل كما في قوله جل جلاله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾[البقرة: ١٦٥].

ولذلك يتبرأ الشيطان، وكل من عُبد من دون الله يتبرءون من أتباعهم يوم القيامة ومن عبادتهم لهم وأن جعلوهم له أندادًا وشركاء.

كما في قوله عز وجل في شأن الشيطان: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي: في الدنيا حينما جعلتموني شريكًا يطاع من دون الله وقال في شأن كل من عُبِدَ من دون الله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقال في شأن الأتباع وهم يتبرءون ممن عبدوهم في الدنيا وجعلوهم شركاء لله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] وذلك حين يرىٰ الأتباع عجز وهوان من عبدوهم وجعلوهم شركاء لله بل وساووهم برب العالمين فقد أطاعوهم كما يطاع الله وها هم الآن قد عرفوا خطأهم ولكن بعد فوات الأوان يقول عز وجل في شأن أهل النار: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦-٩٨].

فليس صورة الشرك تنحصر فقط في أن نصنع لله صنمًا نتمسح به ونعبده كما كان يفعل المشركون قديمًا بل الشرك أيضًا أن نجعل لله شركاء من خلقه نعظمهم ونخشاهم ونرجوهم في السراء ونلجأ إليهم في الضراء وندعوهم من دون الله ونعتقد أنهم يضرون أو ينفعون مع أنهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا أو نفعًا فضلاً عن أن يملكوا ذلك لغيرهم فهم أضعف وأعجز من ذلك كما أنهم لم يشاركوا الله في خلق ذرة في هذا الكون حتىٰ يستحقوا أن نشركهم مع الله في العبادة والتقديس، ولذلك أراد الله منا التوحيد الخالص المنزه من شوائب الشرك كما قال عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥] وقوله عز وجل: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] وقوله أيضًا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

ولأن الله له الخلق والأمر ولم يكن له شريك في الملك فهو لا يقبل من العمل إلا

ما كان خالصًا له وحده.

ولذلك حذرنا الرسول ﷺ من كل أنواع الشرك: الشرك الأكبر والشرك الأصغر، والشرك الجلي والشرك الخفي والشرك الأصغر هو الرياء ففي حديث المسند: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: «**الرياء**». ولذلك حذرنا منه فقد يخفى أمره على كثير من الناس فقال: «**يا أيها الناس:،اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل**» رواه أحمد والطبراني.

وحديث مسلم في «صحيحه» ـ وهو حديث قدسي ـ: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه**» وفي رواية أحمد: «**يقول تعالى إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؟**».

وأيضًا في الحديث الطويل الذي رواه مسلم: أن الله يقول لمن قال يوم القيامة: قاتلت فيك حتى استشهدت: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء (أي شجاع) فقد قيل ثم يؤمر به إلى النار ويقول عز وجل لمن قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، يقول له: كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت ليقال: قارئ، فقد قيل ثم يؤمر به إلى النار ويقال لمن وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك فيقال له أيضًا: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار.

وروى أحمد أن الرسول ﷺ قال لمن قال له: ما شاء الله وما شئت: «**أجعلتني لله ندًّا؟**» وفي رواية له: «**أجعلتني والله عدلاً؟ قل ما شاء الله وحده**» ولخطورة الأمر علمنا الرسول ﷺ أن نقول كما في رواية أحمد والطبراني: «**اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه**».

وقد جاءت الآيات أيضًا تحذرنا من هذا النوع من الشرك قال عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ** ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وقوله أيضًا: ﴿ **يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤٢] فهؤلاء وأمثالهم كانوا يعملون من أجل الناس وكان الله عز وجل لا يخطر لهم على بال ولذلك فهم قد أخذوا أجرهم في الدنيا من الثناء والمديح وليس لهم في الآخرة حظ أو نصيب.

وفي حديث الترمذي: أن عدي بن حاتم رضي الله عنه لما سمع الرسول ﷺ يقرأ قوله عز وجل: ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣١]. قال عدي وكان على دين النصرانية قبل أن يسلم: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم، فصحح له الرسول ﷺ الأمر بقوله: «**ألم يحرموا لهم ما أحل الله ويحلوا ما حرم الله فأطاعوهم؟**» فقال عدي: بلى، فقال الرسول ﷺ: «**فتلك عبادتهم**» ولذلك سمى الله ذلك شركًا ونزه ذاته الشريفة عنه فقال في ختام الآية: ﴿ **سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة: ٣١].

ولذلك فارتكاب المعاصي وفعل ما حرم الله أو نهى عنه واتباع الأهواء والاستجابة لوسوسة الشيطان كل ذلك مَعَاولُ تهدم صرح الإيمان وتنقص من رصيد الإيمان حتى يصبح رصيد الإيمان في قلب العبد ضعيفًا لا يقوى على منعه من ارتكاب المعاصي بل قد يهبط رصيد الإيمان إلى الصفر وقد ينزل إلى ما تحت الصفر حيث تكون السيئات أكثر من الحسنات فيصبح المرء مدينًا للناس وقد يتعرض للمساءلة والعقاب حين يطالبه الناس برد حقوقهم وأموالهم التي أخذها بغير وجه حق وعجز عن سدادها، فيسقط من أعين الناس ويفقد ثقتهم فلا يتعامل معه أحد وهذا أشد ما يحاول تجار الدنيا أن يتحاشوه فما بالك بحالهم في الآخرة؟ لا جرم أنه أسوأ كما بين لنا ذلك حديث المفلس الذي ذكرناه من قبل فقد ظلم هذا وقذف هذا

وضرب هذا فيأخذون من رصيد حسناته فالإفلاس الحقيقي إنما يكون في الدين والأخلاق ويظهر خطره بصورة أكبر يوم القيامة يوم الحسرة والندامة حيث يجتمع حوله الدائنون ليستوفوا حقوقهم منه ، فالعملة المتداولة يوم القيامة ليست هي الدرهم ولا الدينار بل هي الحسنات والسيئات ، حتى إذا فنيت حسناته ولم يقض ما عليه أخذ من سيئاتهم تعويضًا لهم عما سببه لهم من أضرار في الدنيا وطرحت عليه ثم طرح في النار .

ففي اللحظة التي يعصي فيها العبد ربه كارتكاب الفاحشة مثلاً فإن الشيطان يزين له الشيء القبيح فيراه حسنًا وينسيه سوء العاقبة ويجعله لا يرى عظمة ربه وأنه مطلع عليه يرى عمله ويسمع قوله فلا يفكر حينئذٍ إلا في إرواء شهوته ثم بعد أن يقضي وطره يتذكر ربه ويندم على ما فعله فيتوب ويستغفر لذنبه .

* * *

التوحيد الخالص

ولذلك فالمعصية كما بيَّنا خدش لإيمان العبد وشرخ في جدار الدين وقدح في اليقين وخصم من الرصيد الإيماني للمؤمن فيقل رصيده من الإيمان وينقص ولذلك فالإيمان الكامل الذي يريدنا ربنا أن نصل إليه إنما هو ذلك الإيمان الذي لا يخالطه شرك أو شك أو لا يلابسه ظلم أو يصاحبه ذنب أو إثم كما قال عز وجل : ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢] .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لهذا الإيمان الكامل وهذا اليقين الخالص بنبي الله يوسف عليه السلام وذلك بترفعه عن فعل الفاحشة حينما دعته إليها امرأة العزيز فمنعه إيمانه بالله وعصمه تذكره لسوء المآل من إجابتها لما دعته إليه ولا عجب في ذلك فهو من عباد الله المخلصين ولذلك قال لها : ﴿**مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ**